جمهورية العراق
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة تكريت - كلية الآداب
قسم اللغة العربية
الدراسات العليا (الماجستير)

النثر الاندلسي

إعداد :
ا. د ياسر رشيد حمد

١٤٤٧هـ ٢٠٢٦ م

خطبة طارق بن زياد

ورسالتا ابن زيدون الجدية والهزلية

النثر:

جرى الباحثونَ في دراسة النثرِ على تقسيمهِ إلى قسمينِ . نثرٌ فنيٌ خالصٌ ،ونثرٌ تأليفي. ولاشكَ في أنَّ الخطابةَ تُعدُ من أبرزِ موضوعات النثر الفني في عصوره الأولى . وقسيمُ الخطابةِ الرسائل وهيَ صنفان . رسائلُ ديوانية .وأخرى أخوية . والرسائلُ الديوانيةُ هي التي تجري بينَ الولاةِ وقادتهم .

كانت الحاجةُ إلى النثرِ شديدةً لاتِّصالِ حياة الفاتحينَ بالحروبِ واقترانهم بالجهادِ في سبيل الله فضلاً عن النزاعاتِ والثورات الداخلية كلُ تلكَ الظروف اقتضت توفُّر النثرِ بأنماطهِ المختلفة . ومن ضمنها الخُطَبُ والدعواتُ الحماسيةُ . لاستنفارِ المقاتلينَ فضلاً عن الخطبِ الدينيةِ التي كانت جزءاً طبيعياً من حياة المجتمع العربي الإسلامي في الأندلس .

خطبة طارق بن زياد:

تتداول المصادر الأدبيةُ ذكرَ هذه الخُطبةِ وذلكَ لاقترانها بحدثٍ مهمٍ في تاريخ الأندلس ولاتِّصالها بشخصيةٍ من الشخصيات البارزةِ في التاريخ الإسلامي فإذا صحَّت نسبتها إلى طارق ابن زياد فستكونُ أقدمَ نصٍ نثريٍ أدبيٍ لهُ ارتباطٌ بتاريخِ الأندلسِ وعصورها .وأقدمُ روايةٍ للخطبةِ جاءت عندَ مؤرِّخٍ مشرقيٍ هوَ ابنُ خِلِّكان المتوفى سنةَ ٦٨١ هجرية .

وقد وقفَ عددٌ من الباحثينَ بالدراسةِ المتأنيةِ لنصِ الخُطبة التي يتسرَّبُ الشكُ في صحةِ نسبتها إلى طارق ابنِ زياد . ومن أهمِ مصادرِ الشكِ هو عدمُ ذكرِ المصادر الأندلسيةِ المتقدمةُ لهذهِ الخطبةِ . فضلاً عن عواملَ تاريخيةٍ فكريةٍ . وأخرى فنيةٍ تتصلُ بأسلوب الخُطبةِ . ومنها

١ _ عدمُ تلائمِ المعاني التي جاءت في الخطبةِ مع الروحِ الإسلاميَّةِ العاليةِ . فليسَ في الخطبةِ اشادةٌ بدوافع الفتحِ والحَثُ على طلبِ الشهادةِ كما هوَ معهودٌ في خطبِ الجهادِ .إذ من غيرِ المعقولِ أن يغريَ جندهُ بالمغرياتِ الماديةِ . في مقامٍ يستدعي بذل الأرواحِ في سبيل الله.

٢ _ حداثة عهد طارق بالإسلام لا تتيح له هذه البلاغة والبراعة في خطبتهِ

وهناكَ عوامل فنية تنفي نسبة الخطبة لطارق ابن زياد وهي.

١ _ إنَّ الخطبة لا تنسجم في أسلوبها وخصائصها الفنية أن يكونَ طارق ابن زياد صاحبها . لطولها من ناحية . ولاعتمادها على السجع المُتَكَلَّف من ناحيةٍ أخرى . فالصفة التي تتصف بها خطب القرن الأول الهجري هي الإيجاز والتركيز وأما السجع المتكلف فهو من خصائص القرون المتأخرة.

٢ _ يفترَض أن تتضمن الخطبة اقتباسات قرآنية على نحو ما هو معروف في خصائص النثر في القرن الأول الهجري.

نص الخطبة:

" أيها الناس أين المفر البحر واراءكم والعدو أمامكم فليس لكم والله إلا الصدقُ والصبر . فإنهما لا يُغلبانِ وهما خيرانِ منصوران . لا تضرُ معهما قلَّةٌ ولا ينفعُ معهما الحذر والكسلُ والاختلافُ والفشل. والعجبُ بالكثرة.

كونوا كهيئةِ رجلٍ واحدٍ في القتال . وإني صامدٌ إلى طاغيتهم لا أتهيبهُ حتى أخالطهُ أو أقتلَ دونه . فلا تهنوا ولا تنازعوا إن قتلت . فتفشلوا وتذهب ريحكم وتولوا الأدبارَ لعدوكم فتبيدوا بينَ قتيلٍ ومأسور"

لرسالة الجدية والهزلية:

حظيت هتان الرسالتانِ بالقسطِ الأوفرِ من عنايةِ الدارسين والشرَّاحِ فقد شرح الرسالةَ الجديةَ صلاح الدين الصفدي (ت ٧٦٤هجرية) بكتاب تمام المتون إلى شرح رسالة ابن زيدون.

أما الهزلية فقد شرحها ابنُ نباتةَ (ت ٧٦٨ هجرية) بكتابهِ سرح العيون في شرح رسالةِ ابنِ زيدون . والرسالة كتبها ابنُ زيدون على لسانِ ولادة إلى ابنِ عبدوس .

وتلتقي الرسالتانِ في جملةِ خصائصَ ومميزاتٍ من حيث الأسلوب.

١_ فيهما إطالةُ وإطناب والرسالةُ الجدية أقلُ إطناباً وأكثرُ اتزاناً

٢_ فيهما صناعةٌ لفظيةٌ معتمدةٌ على السجعِ وازدواج العبارة

٣_ يشتركانِ في قوةِ الخيالِ كونهُ عنصراً مهماً في التعبير والتصوير

٤_ تشتركانِ في الإكثارِ من استعمالِ الأمثالِ والحِكمِ وذكر الأحداث التاريخية وذكر وقائع القران الكريمِ وحوادث الإسلام الحنيف.

وتتميز الرسالة الجدية بقوة العاطفة وعمقها إذ فيها تصويرُ حال الشاعر فقد كانَ تحت وطأة السجن ينوء بآلامهِ وشماتة الأعداء به . وقد كتبها في السجنِ ووجهها إلى الأمير أبي الحزمِ بنِ جَهوَر . وقد تأثر في أسلوبهِ بطريقة ابن العميد ومدرستهِ التي تعتمد السجعَ منهجا وتأثرَ أيضاً برسالةِ التربيعِ والتدوير للجاحظ في رسالتهِ الهزلية

نص الرسالة الجدية:

"يا مولايَ أبقاك الله ماضيَ حد العَزمِ . واريَ زند الأمل ثابتَ عهد النعمة .إن سلبتني أعزَّكَ اللهُ لباسَ نعمائك وعطَّلتني من حُلى إيناسك وأظمأتني إلى برودِ إسعافك ونفضتَ بي كفَ حياطتك .وغضضتَ عني طرفَ حمايتك .بعدَ أن نظر الأعمى إلى تأميلي لك وسَمِعَ الأصمُ ثنائي عليك . وأحس الجمادُ باستحمادي إليك

.فلا غَرَبَ قد يغصُ بالماءِ شاربه ويقتلُ الدواءُ المستَشفيَ به .و يؤتى الحَذِرُ من مأمنه .وتكونُ منيةُ المتمني في أمنيته والحَينُ قد يسبقهُ جهد الحريص"

كل المصائبِ قد تمرُ على الفتى وتهونُ غيرَ شماتة الحُسَّادِ

الرأي في الرسالة الجدية:

تُعَد هذه الرسالة من أبرز وثائق النثر الأندلسي وحظيت بإعجاب النقاد قديماً وحديثاً كنموذجٍ فذٍ في الاستعطاف من غير تنازلٍ ولا خضوع . مع البلغةِ وتوظيف الثقافة فقد أظهر فيها ابن زيدون براعةً فائقةً في مزج المشاعر الشخصية بأسلوب أدبي رفيع . مستخدماً الاقتباسات القرآنية والأمثال والشعر لإقناع حاكم قرطبة ببراءته

نص الرسالة الهزلية:

"أما بعدُ أيها المصابُ بعقله . المورطُ بجهله .البينُ سقطه الفاحشُ غلطه .العاثرُ في ذيل اغتراره الأعمى في شمسِ نهاره الساقطُ سقوط الذبابِ على الشراب .المتهافتُ تهافُتَ الفراشِ على الشهاب. فإنَّ العُجبَ أكذب ومعرفةُ المرءِ نفسهُ أصوَب وإنكَ راسلتني مستهدياً من صلتي ما صَغُرت منهُ أيدي أمثالك .متصدياً من خلَّتي لما قُدِعت دونهُ أنوفُ أشكالك "

الرأي في الرسالة الهزلية:

إن الرسالة الهزلية التي كتبها ابن زيدون وما فيها من المزايا والعيوب اعتُبرت في مقدمة الرسائل الخالدة في الأدب العربي . وهي إحدى طُرُز أدب الفكاهة والتهكم والسخرية المملوءة بالمعاني مع الثراء في الترادف وسهولة الأسلوب والتعبير ولا يمكن أن يقدر عليها إلا كاتبٌ متمكِّنٌ مثل ابن زيدون